

حول إعجاز القرآن



الفاصلة وبداعة الأسلوب

للأستاذ السباعي السباعي ييومي

المدرس بدار العلوم

ما الفاصلة؟ تكلمت العرب الشعر والنثر فجاء في شعرها الرجز والقصيد، وفي نثرها المسجوع والمزدوج والمنثور؛ وبدهى أن القرآن جاء نثراً لا شعراً، ولكنه لم ينضو تحت أقسام النثر السالفة لا مجموعة ولا فرادى، فها هو باللفظ المنثور يرسل كله إرسالاً خالياً من كل قيد يراه القارىء. ويلحظه السامع في التقفية والوزن؛ ولا هو بالمتزاج الجمل والعبارات بحيث ترى كل اثنتين منهما أو أكثر، على خلوهما من التقفية، متعادلتين تقريباً في الأقيسة والموازن، كما أنه ليس بذى التقفية التي تراها في الأسجاع؛ إنما هو كلام أحكمه الله ثم فصله آيات كما قال جل شأنه: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» فجاء آيات متلاحقات تختتم في كل سورة غالباً بمقاطع متشابهات ذات إيدان بالانتهاء، دون أن تتقيد بحرفية السجع أو موازنة الازدواج، ودون أن تخلو كل الخلو من مظاهر التقيد، فلم يقبل لذلك أن يطلق عليه اسم من تلكم الأسماء، وعرف وحده باسم المفصل أخذاً من الفاصلة، التي هي مقطع الآية فيه، كالقرينة في السجع والقافية في الشعر. نعم قد جاء فيه شبه المتزاج والمسجوع، وكان يصح أن يسمى بهما لولا أنه قد خرج في كثير منهما بالطول خروجاً لم تك تألفه العرب فيهما، وتقرب بذلك من التفصيل الذي وسع الطويل ولم ياب القصير، فقصرت التسمية في القرآن عليه دون المعروف من أقسام المنثور كما تعارف العلماء.

اتصال الفاصلة بمعنى آيتها - ولقد كان القرآن يمهّد للفاصلة بمعنى آيتها تمهيداً تقع به مستقرة في مقرها ، وتأتي متعلقاً معنى الكلام بمدلولها . انظر قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، كيف وقع اللطيف ، كالعلة لصدر الآية ، « والخبير ، كالعلة لعجزها . وانظر قوله على لسان قوم شعيب لشعيب : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد » كيف جاءت الفاصلة على سبيل التهمك ، من الحلم المناسب لترك معبوداتهم ، والرشد الملائم لما تلا ذلك من عدم التصرف في أقوالهم . وكذا قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأ أنفسهم أفلا يبصرون » فإنه ختم الآية الأولى بالسمع المعنوي ، لأنها معنوية ليس فيها ما يحس . وختم الثانية بالأبصار الحسي لأنها من مشاهدات الحس .

ارشاد الآية الى فاصلتها - ولوثاقة العلاقة بين معنى الآية والفاصلة كانت الآية ترشد إلى فاصلتها كل ذي قلب مفكر ، ولسان معبر . قال زيد بن ثابت : أُملي علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر » فعند ذلك قال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له معاذ : لم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت . وكانت الفاصلة لذلك إذا غيرت أمام من تلك صفته ، ولو لم يك حافظاً للقرآن أنى ذلك التغيير على محدثه . روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : « فان زلّتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ولكنه جعل الفاصلة « غفور رحيم » ولم يك الأعرابي يحفظ القرآن ؛ فقال : أما إن كان هذا كلام الله فلا ، إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل بعد البينات ، لأنه إغراء عليه .

اختلفت الفاصلة باختلفت اللفاظ أو السياقات - ومن الفواصل ما كانت تختلف لتغير لفظة واحدة في آيتين ، قال الله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون » . فجعلها بعد الشرح من الايمان لأن مخالفة القرآن له ، تدعو إلى سرعة التصديق . وبعد قول الكاهن من التذكير ، لأن مخالفة القرآن له تدعو - لوجود المشابهة ظاهرة - إلى بعض التدبر والتفكير . بل كانت تختلف الفاصلة في الآية الواحدة تأتي في موضعين لاعتبارين . قال تعالى في سورة ابراهيم : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » ، وقال في سورة النحل : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » . فأتى بها في الآية الأولى من صفات المنعم عليه ، وفي الثانية من صفات المنعم ، وكلتاها مناسبة للآية في ذاتها لأنها متعلقة بالله والانسان ؛ ولكن الحديث في سورة ابراهيم كان مسوقا قبلها في صفات الناس وعدم شكرهم على تعدد نعم الله ، ولذلك يقول : « وآتاكم من كل ما سألتموه » ، فأتى بها من الظلم والكفر المناسبين للسياق من صفات الانسان . وفي النحل كان الحديث في ذكر صفات الله ، ألا تراه قبل الآية يقول : « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » ، فأتى بها من المغفرة والرحمة ، وهما من صفات الله الملائمة لما تعودته سبحانه إزاء طغيان الانسان من الكرم والغفران . ومن هذا النوع ما جاء في ثلاثة مواضع كقوله تعالى في سورة المائدة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله » . فقد ختمها بثلاث فواصل في ثلاثة مواضع هي قوله : « فأولئك هم الكافرون » ، وقوله : « فأولئك هم الظالمون » ، وقوله : « فأولئك هم الفاسقون » . وذلك لأنه يقصد في الأولى من جحد ما أنزل الله وهم الكافرون . وفي الثانية من خالف ما أنزل عن علم وهم الظالمون ، وفي الثالثة من خالفه عن جهل وهم الفاسقون . ولذلك كانت الفاصلة تتحد في الآيتين متى بقيت المناسبة . كما في آتي الاستئذان بسورة النور وهما : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم » بعضكم على بعض ، كذلك بين الله

لكم آياته والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . فالفاصلة فيهما واحدة إلا أنه أضاف الآيات في الأولى إلى ضميره سبحانه ، وفي الثانية أناب عن هذا الضمير (أل) اعتمادا على سبقه إياها .

جى ، بعضه الفواصل على غير مقتضى الظاهر - وقد يفيد ظاهر الفاصلة عدم ملامتها للآية ، ولكن تدبرا قليلا في المعنى يدفع هذا الظاهر ويكشف عن ملاممة وثيقة الصلة شديدة الارتباط ، من ذلك مثلا قوله تعالى على لسان عيسى عن قومه : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، فإن قوله : « وإن تغفر لهم » يقتضى ظاهره مجيء الفاصلة من الغفران ، غير أن من يعلم أنه لا يغفر لمستحق العذاب في نظر الناس إلا ذو العزة الذى ليس فوقه عزيز ، وهو الله . ثم يعلم مع ذلك أن الله يرى إذا فعل هذا مالا يرى الخلق من حكمة يجهلون ، لا يتردد في أمر الفاصلة تأتي من العزة والحكمة كما أتت من المغفرة والرحمة كما اقتضى ظاهرها . وآيات هذا النوع كثيرة وكل واحدة منها توصى لمن يتدبرها أنها بفاصلتها ، وفاصلتها بها ، أحق وأولى من غيرها .

هداية الآية الى فواصلها باللفظ مع المعنى - وفي القرآن فواصل كثيرة كانت الآية تمهد لها فوق تمهيد المعنى بالالفاظ نفسها أو بلازم معنى الالفاظ ، فمن النوع الأول ما توافق فيه الفاصلة أول الآية ، ويسمى رد العجز على الصدر كقوله تعالى : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . ومنه ما توافق فيه آخرها كقوله : « أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » . ومنه ما توافق فيه الوسط كقوله : « قال لهم موسى ويلكم لا تغفروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افتري » . والنوع الثانى كثير ، ومنه قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » ، فإن أسلاخ النهار من الليل يستلزم الظلمة ولذا جاءت الفاصلة منها .

التصرف للفاصلة مع المحافظة على المعنى - ولقد تصرف القرآن في تهية التراكيب للفاصلة تصرفا واسعا المدى، وكان مع ذلك محتفظا أيما احتفاظ بتبعية اللفظ للمعنى، بل كثيرا ما آتاه هذا التصرف مآرب أخرى، وهذا شيء امتاز به على سائر الكلام.

فمن ذلك تقديم المفعول على العامل في قوله تعالى: «أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون»، وقوله «إياك نعبد وإياك نستعين»، والمزية الزائدة هنا فوق تحقيق الفاصلة بهذا التقديم إفادة التخصيص والحصص.

ومنه إيراد الجملة اسمية لافعلية في قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين». ولا تخفى مزية الاسم على الفعلية في نفي الإيمان عنهم هنا، وبخاصة الفعلية الماضية التي كانت يقتضيها ظاهر السياق مشاكلة لأول الآية.

ومنه إثارة المفرد على الجملة كما في قوله تعالى «وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». واسم الفاعل هنا له على الماضي فضل الاستمرار والثبوت. ومنه الاتيان بالظاهر بدلا من الضمير كما في قوله: «والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين»، والفضل الزائد هنا بمجيء الظاهر تعريفنا من المصلحون في نظر الدين.

ومنه الاتيان بصيغة الفاعل مكان صيغة المفعول في قوله تعالى: «من ماء دافق». وفي إسناد التدفق الى الماء نفسه دلالة على أن قوة الدفق من طبيعته. ومنه عكس ذلك كما في قوله تعالى: «حجابا مستورا». ولأن يتناول الستر الحجاب نفسه مع المستور خلفه أبلغ في قوة الستر واختفاء المستور.

ومنه حذف المفعول كما في قوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى». وفيه بيان أن المراد مطلق الاتصاف بالاعطاء والاتقاء لا بيان المعطى والمتقى. ومنه الاتيان بهاء السكت في قوله تعالى: «ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه». وفيه تحقيق فوق الفاصلة بمشاكلة تاءات التأنيث قبل مد هذا المتفجع النادب بما يتناسب في الإيقاع مع حال المتأوه المفجوع.

ومنه غير ذلك كثير مما تظهر فيه مع تحقيق الفاصلة مزية جديدة على نحو ما ذكرنا، فإذا لم تظهر لأفهامنا تلك المزية وقد تكون خافية علينا، فلا أقل من ألا نجد لما لم يحقق الفاصلة فضلا ما على ما يحققها، وإذن يكون لما يحققها فضل هذا التحقيق.

ومن ذلك تذكير الصفة أو تأنيثها سواء أ كانت هي الفاصلة كما في قوله تعالى : « أعجاز نخل منقعر » أو قوله : « أعجاز نخل خاوية » . أم مبهمة للفاصلة كما في قوله : « وكل صغير وكبير مستطر » وقوله : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ومنه مجيء صيغة مكان أخرى كما في قوله تعالى : « إن هذا شيء عجاب » بدلا من عجيب ؛ أو مراد في مكان آخر كما في قوله : « سأصليه سقر » بدلا من لظى مثلا، أو حركة مكان غيرها كما في قوله : « فأولئك تحروا رشدا » إيثارا لفتح الشين هنا على سكونها في « رشدا » وهكذا .

التناظر بين فاصلة وفاصلة — ولقد راعى القرآن الكريم في معظم فواصله انتهاء الكلمات الأخيرة فيها بحروف المد واللين أو هاء السكت لأنها تمكن القارئ من الترنم والترتيل ، كما راعى في حروف هذه الكلمات وأوزانها بين كل فاصتين أو أكثر التماثل أو التقارب ، وافتن في ذلك افتنانا بعيدا بديعا .

فكان من ذلك الفاصلتان المتفتقتان الآخر وزنا لا تقفية ، مع مقابلة غير تامة فيما قبله كما في قوله تعالى : « يوم يكون للناس كالفراس المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ومع مقابلة تامة كما في قوله : « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .

والفاصلتان المتفتقتان تقفية لا وزنا مع مقابلة غير تامة كما في قوله ، لإحيميا وغساقا جزاء وفاقا . ومع مقابلة تامة كما في قوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » والفاصلتان المتفتقتان وزنا وتقفية مع مقابلة غير تامة كما في قوله : « فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة » . ومع مقابلة تامة وهو كثير كما في قوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » وقوله : « إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم » .

ومن الفواصل ما كانت تجمع فوق اتحاد الحرف الأخير اتحاد حرف أو اثنين أو ثلاثة قبله غيره ، ومع ذلك لا يشعر القارئ بشيء من التكلف مطلقاً بل لا يكاد يشعر أن هنالك اتحاداً . مثال الحرف قوله : « فاما اليتيم فلا تقهر » وأما السائل فلا تنهر ، وقوله : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » ، ومثال الحرفين قوله : « والطور وكتاب مسطور » ، وقوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون » . ومثال الثلاثة قوله : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغنى ثم لا يقصرون » . وبهذا وقع الاتحاد في حرفين وثلاثة وأربعة .

هذا بعض ما أردنا إثباته عن الفاصلة في القرآن وهي ناحية فريدة بذ فيها كلام العرب ، فكانت أدل شيء على بدع الأسلوب وقوة الإعجاز ، على أنه بذهم في كل ناحية أخرى مما يتفاضل فيه الكلام ، فبذهم في الفصاحة بمهداتها ودرجاتها ، كما بذهم في البلاغة على تعدد ألوانها . وإن لنا لجولات في ذلك إن شاء الله تعالى .

السباعى السباعى يرمى

٣

سئل العباس : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو أكبر منى وأنا ولدت قبله .

٤

كان بين يدي معاوية ثريد كثير السمن ورجل يؤا كاه فخرقه إليه ؛ فقال له معاوية : أخرقتها اتغرق أهلها ؟ فقال : سقناه إلى بلد ميت .